

الحوار القرآني لأهل الكتاب في ضوء آيات سورة آل عمران

أ.د / أحمد عباس البدوي *

ملخص البحث

إنَّ هذا البحث الموسوم بـ (الحوار القرآني لأهل الكتاب في ضوء آيات سورة آل عمران) بُني على ثمان دعائم، إضافة إلى المقدمة والخاتمة، تناولت في هذه الدعائم:

- بيان زمان نزول سورة آل عمران، والمناسبة بينها وبين سورة البقرة، كما وضحت فيها أغراض هذه السورة وموضوعاتها.
- ثم حاجة أهل الكتاب لرسول الله ﷺ كما تناولت موضوع المباهلة وتعريفها.
- ووقفنا مع دعوة القرآن لأهل الكتاب إلى (كلمة سواء).
- كما تجذّت البحث عن حاجة أهل الكتاب في شأن عقيدة إبراهيم عليه السلام .
- ثمَّ عرج البحث إلى بيان تصحيح القرآن الكريم لما وقع في كتب أهل الكتاب من تحريفات خطيرة.
- ثم تناول المبحث أخيراً سبب كفر أهل الكتاب وصدّهم عن سبيل الله تعالى .

* كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة

Abstract

The research: (The Qur'anic dialogue to the people of the book in the light of Surat Al-Imran) consist on eight pillars, including the introduction and conclusion. I dealt in these pillars the following:

- Observing the descent period of Surat Al-Imran, and its suitability with Surat Al-Baqarah.
- Argument the people of the book to the prophet Muhammad (saw).
- The call of the Qur'an to the people of the book to the word that just.
- Argument the people of the book concern the faith of the prophet Ibrahim (saw).
- Show the correction of the Qur'an to the distortion of the books of the people of the book.

Finally the last subject was about the reason of disbelieving of the people of the book, and their repulsion from the path of Allah (swt).

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المنزل عليه : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿[العنكبوت : 46] .

وبعد ...

فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وكرمه فقال : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70] ومن مزايا هذا التكريم أن منحه العقل، وخلقته في أحسن تقويم. وعلمه البيان، وفصاحة اللسان، بأي لغة كانت،

وجعل ذلك آية من آياته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوُكُوفُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم:22]

فاقتضت حكمة الخالق أن جعل في كل أمة رسولا يدعوهم إلى وحدانية الله،
وارسل كل رسول بلسان قومه ليبين لهم قال تعالى: ﴿هُوَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ
إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:4] والبيان في أمور الدعوة إلى الله
يحتاج بدهاء إلى الأخذ والرد، والحوار بين الداعي والمدعويين
المدعويين بعضهم لبعضاً؛ من أجل ذلك وجد أن القرآن يذكر محاجة نوح
وجدله لقومه ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَاءَكُنَّا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا...﴾ [هود:32]

ومحاجة إبراهيم إلى قومه ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَكَذَ
هَذَا نِي...﴾ [الأنعام:80] وحوار موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ
فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ
كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 23 وما بعدها] . وهكذا كل المرسلين حينما تتبع
دعوتهم إلى أقوامهم تجد أن الحوار هو الأساس الذي قامت عليه الدعوة.
ومن هنا كان هذا البحث بعنوان:

(الحوار القرآني لأهل الكتاب في ضوء آيات سورة آل عمران)

ولقد جاء هذا الموضوع في ثمان وقفات، إضافة إلى المقدمة والخاتمة، هي
كالاتي : الوقفة الأولى : بين يدي سورة آل عمران .

بينت فيها زمان نزول السورة، وأسماءها، والمناسبة بينها وبين سورة البقرة،
وبيان أهم أغراض هذه السورة و موضوعاتها .

الوقفة الثانية : بيان (إن الدين عند الله الإسلام).

الوقفة الثالثة : محاجة أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن
ميلاد عيسى عليه السلام .

الوقفه الرابعة: أمر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمباهلة أهل الكتاب .

الوقفه الخامسة : دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء .

الوقفه السادسة : محاجة أهل الكتاب في شأن عقيدة إبراهيم عليه السلام .

الوقفه السابعة : تصحيح القرآن الكريم لما وقع في كتب أهل الكتاب من

تحريف .

الوقفه الثامنة : سبب كفر أهل الكتاب وصددهم عن سبيل الله .

وختمتُ البحثُ بتلخيصٍ لأهم الموضوعات التي تعرضت لها فيه . ثم

الفهارس .

وبالله التوفيق

الوقفه الأولى: بين يدي سورة آل عمران

* اسم السورة:

سُميت هذه السورة بسورة آل عمران، ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة

رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اقرأوا

الزهرابين : البقرة وآل عمران"(1) وعن النواس بن سمعان قال : سمعت

النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "يُؤتى بالقرآن يوم القيامة تتقدمه سورة

البقرة وآل عمران"(2) وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

قال : بُت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ الآيات من آخر

سورة آل عمران "(3) فهذه الأحاديث مجتمعة تؤكد على أن هذه السورة

سُميت بسورة آل عمران، كما أنها وُصفت بالزهراء في الحديث المتقدم .

ونذكر الألوسي رحمه الله أنها تسمى : (الأمان والكنز والمجانلة، وسورة

الاستغفار)(4)

* زمان نزول السورة:

السورة مدنية النزول بالاتفاق، فقد نزلت بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله: (وهذه السورة نزلت بالمدينة بالاتفاق بعد سورة البقرة، وتعد السورة الثامنة والأربعون في عداد سور القرآن من حيث النزول، وعدد آياتها مائتان في عد الجمهور، وهي عند أهل العدد بالثلاث مائة وتسع وتسعون آية)(5)

* وجه المناسبة بينها وبين السورة التي قبلها:

المناسبة بين سورة البقرة وسورة آل عمران من وجوه، منها:

- أن كلتا السورتين بُدئت بالأحرف المقطعة، وتلى ذلك الإشارة إلى القرآن الكريم، فسورة البقرة بدأت بقوله تعالى: ﴿الْم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ وسورة آل عمران بدأت بقوله تعالى: ﴿الْم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْخَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ...﴾ (3).

- في كلتا السورتين محاجة أهل الكتاب، فسورة البقرة حاجة اليهود وأفاضت في ذلك واختصرت محاجة النصارى، وسورة آل عمران حاجة النصارى وأفاضت في ذلك واختصرت محاجة اليهود.

- الدعاء في آخر كل منها: ففي آخر سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [الآية: 286].

وفي آخر سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل

عمران: 193]

* أغراض سورة آل عمران :

من أغراض هذه السورة المباركة :

- بدأت هذه السورة كسابقتها بالتتويه بالقرآن الكريم وبرسول الله صلى الله عليه وسلم المنزل عليه هذا القرآن، ثم تفسير آيات القرآن الكريم إلى محكم ومتشابه، ثم التتويه بفضيلة الإسلام، وأنه لا يعدله دين، وأنه بعد ظهور الإسلام لا يقبل أي دين ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : 19] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾ [آل عمران : 85]

- الحديث عن التوراة والإنجيل و أنهما نزلتا قبل القرآن .
- ذكر الآيات الكونية، وبيان دلالات الألوهية .
- بيان ميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام، وأنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم.
- تبرئة إبراهيم عليه السلام من اليهودية والنصرانية، و أنه ﴿كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران : 67]
- ثم استرسلت السورة بعد ذلك في ذكر أحوال المسلمين مع أهل الكتاب، وركزت على غزوة أحد والدروس المستفادة منها، إلى غير ذلك .

الوقف الثانية : براهين التوحيد

قال الله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19)﴾ [آل عمران]

من خلال هاتين الآيتين الكريمتين يتبين لنا براهين التوحيد ظاهرة جلية لكل

من كان فيه مُسَكَّةٌ من عقل، وشيءٌ من العدل، واستقامة الفطرة، فإن كل ما في هذا الكون ناطق بوحداية الخالق وعظمته سبحانه، وفي كل شيء له آية تدل أنه واحد .

وقد شهد سبحانه لنفسه بالألوهية والوحدانية، وبَيَّن ذلك الملائكة الكرام بما نزلوا به من الوحي على رسله، وبلغ الرُّسُل ذلك عليهم صلوات الله وسلامه، كما يَبَيِّن ذلك أولو العلم بما أقاموا به من الحجج والبراهين .

فقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تمجيد وتصديق ينشأ عن شهادة الموجودات كلها بذلك ، أي أنه سبحانه ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ بمعنى شهد بوحدايته وقيامه بالعدل .

كما وصف سبحانه نفسه بالعزیز الحكيم ذو المنعة الذي لا يُغلب، وكل ما يصدر عنه سبحانه مُحكم مُتَقن .

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: قرأ جمهور القراء "إن الدين" بكسر همزة "إن" فهو استئناف بُدئ به فضيلة هذا الدين بأجمع عبارة وأجزأها، وقرأ الكسائي : "أن الدين " بفتح الهمزة، على أنه بدل من " أنه لا إله إلا هو" أي: شهد الله بأن الدين عند الله الإسلام .

(وحقيقة الدين في الأصل : الجزاء، ثم صار حقيقة عرفية يُطلق على مجموعة عقائد وأعمال يُلقنها رسول من عند الله، ويعد العاملين بها بالنعيم ، والمعرضين بالعقاب)(6) (1)

والإسلام : علم بالغلبة على مجموع الدين الذي جاء به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فالإسلام صار علماً بالغلبة على الدين الذي جاء به خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فهو الدين المقبول عند الله الذي لم يرتض ديناً سواه ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: أي الدين المقبول الذي ختم

الله به الأديان، وجعل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، أرسله بالحجة الساطعة والبرهان القاطع الذي يدل على صدق نبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام، وهو هذا القرآن المعجز الذي جادل فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكابروا وعاندوا فلم يقرُّوا بأنه كلام الله الرحمن الرحيم، والحال إنه أظهر من الشمس في رابعة النهار، ولهذا قال سبحانه في شأنهم: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة (7).

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: لقد مرت البشرية بأطوار مختلفة متغايرة متعاقبة، وكانت رسل الله تترى لتبلغ دعوة التوحيد من عهد نوح مروراً بأبي الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام إلى خاتمهم رسول الله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم وكل رسول جاء قومه بكلمة التوحيد .

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59] جاء بهذه الكلمة - كلمة التوحيد - نبي الله نوح عليه السلام، ونبي الله هود، وصالح، وشُعَيْب، وموسى عليهم الصلاة والسلام وكانت رسالاتهم محدودة زماناً ومكاناً، فالرسول قد يُرسل إلى قومه أو عشيرته كما أخبر الله تعالى عن النبي يونس عليه السلام: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: 147]

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾ [آل عمران: 49]

مع محدودية المكان والزمان والأشخاص . يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بعد أن استعرض تاريخ البشرية جميعاً وذكر حضاراتهم ورسلهم: (وإن تفلوت الحضارات والعلوم تفاوتاً ربما كان منه ما زاد بعضها تهيوأ

لقبول التعاليم الصحيحة، وقهر بعضاً عن ذلك مما داخلها من الإعجاب بمبلغ علمها، أو العكوف والألف على حضارتها، فبلغ الأجل المراد المعين لمجيء الشريعة الحق الخاتمة العامة، فأظهر الله دين الإسلام في وقت مناسب لظهوره، واختار أن يكون ظهوره بين ظهراني أمة لم يسبق لها سابقة سلطان (8)

فكان دين الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويدخل في الفطرة الآداب العتيقة التي اصطلح عليها كافة عقلاء البشر، وارتاضت نفوسهم بها إذا كانت تُعَيِّدُهُمْ كمالاً ولا تقضي إلى فسادهم، وذلك أصول قواعد حفظ النسب والعرض خاصة .

ومن مظاهر صلاحية دين الإسلام لجميع الناس وفي كل العصور إلى قيام الساعة ما يلي :

أولاً: إصلاح العقيدة

وذلك بحمل الذهن على ألا يشوبه تردد ولا تمويه، ولا أوهام ولا خرافات، بل عقيدة في الله الواحد الأحد، مبنية على الأدلة والبراهين العقلية، وهي مبسطة في كل وقت وحين، في السماوات والأرض بل وفي الأنفس ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)﴾ [الذاريات] .

ثانياً: جمع هذا الدين بين إصلاح النفوس بالتركيز و بين إصلاح نظام الحياة بالتشريع.

في حين معظم الأديان لايتطرق إلى اصلاح نظام الحياة بشيء، وفي الاسلام يقول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ...﴾ [التقصص : 77] .

ثالثاً: اختصاص الإسلام بإقامة الحجة و مجادلة المخاطبين بأنواع
المجادلات، وتعليل أحكامه بالترغيب و التهيب، حتى تعم جميع الناس على
تفاوت علومهم ومعارفهم.

رابعاً: شمول هذا الدين حيث جاء بعموم الدعوة لسائر البشر :
وهذا أمر لم يأت به دين قبله قط ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعاً... ﴾ [الأعراف: 158] .

وفي الحديث الصحيح : "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، ومنها وكان
الرسول يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" (9)

خامساً: ومن مظاهر صلاحية الدين الإسلامي لكل زمان و مكان : الدوام .
فلم يقل رسول من الرسل أن شريعته دائمة بل ما من رسول و لا كتاب إلا
نجد فيه

بشارة من رسول يأتي من بعده، و منهم عيسى ابن مريم عليه السلام الذي
ذكر القرآن قوله: ﴿ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : 6]
سادساً: يسر هذا الدين و سماعته .

فقد اكتسب مع وضوحه السهولة و اليسر في كل أموره ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : 185]

و في الحديث الصحيح : " بعثت بالحنفية السمحة - ولن يشاد الدين أحد إلا
غلبه" (10) (1)

سابعاً: امتزاج الشريعة بالسلطان في الإسلام .
وذلك من خصائصه، إذ لا معنى للنشر إلا تأسيس قانون للأمة، وما قيمة
قانون لا تحميه القوة و لا الحكومة .
ثامناً: صراحة الدين الإسلامي ووضوحه .

بحيث يتكرر في القرآن ما تستقر من قواطع الشريعة حتى تكون الشريعة معصومة من التأويلات الباطلة، و التحريفات التي طرأت على كتب أهل الكتاب، و يفيد هذا التسليم التام بعد هذا الوضوح التام(11)

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۚ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۚ ...﴾
[آل عمران: 20]

هذه بعض من مظاهر الدين الإسلامي الذي قال فيه الحق تبارك و تعالى: ﴿إِن الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ .

الوقفه الثالثة :

محااجة أهل الكتاب لر سول الله ﷺ في شأن ميلاد عيسى عليه السلام
إن مما ورد في هذه السورة الكريمة قصة ميلاد عيسى عليه السلام. ولمّا كان ميلاده من أمّ بلا أب حمل النصارى على قوله إنه ابن الله كما أخبر سبحانه و تعالى عنهم فقال: ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة : 30] وكذبوا ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91]. نعم لقد تحدثت آيات سورة آل عمران عن ميلاد المسيح عليه السلام و مراحل حياته إلى أن بعثه الله رسولا إلى بني إسرائيل، وأيده بالمعجزات الحسية الباهرة الخارقة للعادة، و مع كل هذه البراهين والأدلة تضاربت آراء أهل الكتاب واختلفت فيه أهواؤهم و غلوا فيه غلوا فاحشا . (فمنهم من رفعه فوق منزلته التي بوأه الله إياها فخلع عليه صفات الألوهية و زعم أنه هو الله، لو أنه ابن الله- وهم النصارى- و منهم من أنزله إلى أسفل سافلين فجعله (بن زنى) واتهم أمه بالفاحشة وهم اليهود)(12)

وقد ردَّ الله سبحانه و تعالى عليهم بالحجج الساطعة، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]

ذكر المفسرون سبب فزول هذا النص القرآني، إن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال: و ما أقول ؟ قالوا تقول إنه عبد. قال: أجل، إنه عبد الله ورسوله و كلمته ألقاها إلى العذراء البتول . ففضبوا و قالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب ؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله. فأنزل الله عز وجل : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ..﴾ (13) إن شأن عيسى عليه السلام العجيب في خلقه من أم بلا أب كشأن آدم في الغرابة، بل إن شأن آدم عليه السلام أعجب وأغرب، فقد خلقه الله تعالى من غير أم و لا أب، فإذا كنتم تستبعدون أن يظهر مخلوق بدون أب، و جعلتم عيسى ابناً لله، فماذا تقولون في أمر آدم، و قد خلقه الله ذو القوة المتين من غير أم و لا أب؟ فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم .

وفي قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾: شَبَّهَ سبحانه الغريب بأغرب منه، والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم على أنه خلق من تراب، والشيء قد يشبه بالشيء لاتفاقهما في وصف واحد و إن اختلفا في أمور أخرى، ثم إن الغريب في أمر النصارى أنهم يعتقدون بأن عيسى ابن الله، وهذا يقتضي أن يكون لله صاحبة "زوجة" تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى ؛ لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ادعائها في آدم بطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعوى النبوة في عيسى أشد بطلاناً(14)

ولكن الله تعالى أراد أن يظهر قدرته للناس حين خلق آدم من غير ذكرٍ ولا أنثى، وخلق حواء من ذكرٍ بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكرٍ، وخلق بقية البشر من ذكرٍ وأنثى؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلْنَجْعَلْ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ وقال سبحانه: ﴿الحق من ربك﴾

هذه البراهين الساطعة والأدلة القاطعة لمن أراد الحق وسلك طريق اتباعه، ولما تعنت النصارى وتعالوا على الحق، دعاهم الرسول ﷺ إلى المباهلة كما أمره الله تعالى، وهذا ما سنشير إليه في الوقفة الرابعة .

الوقفة الرابعة : مباهلة الرسول صلى الله عليه وسلم للنصارى

معنى المباهلة:

المباهلة من الابتهال، مُشتق من البُهْل، وهو الدعاء باللعن، ويُطلق على الاجتهاد في الدعاء مُطلقاً؛ لأن الداعي يجتهد في دعائه، والمراد من الآية : هو الدعاء باللعن .

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَذْغِ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61)﴾ [آل عمران].

والمعنى: من جادلك يا محمد في أمر عيسى بعد ما وضع الحق واستبان، ووضحت له المعالم في أن المسيح عبد الله ورسوله ، وليس إلهاً ولا ابن إله، فقل لهم : هلموا يامعشر النصارى فلنجتمع و ليدع كل منا أبناءه ونسائه ونفسه وأتباعه وأنصاره للمباهلة، ثم نتضرع إلى الله فنقول : اللهم ألعن الكاذب منّا في شأن عيسى .

قال ابن كثير رحمه الله: (وكان سبب نزول آية المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى السورة إلى هنا، في وفد نجران لما قبحوا المدينة، فجعلوا

يُحَاجُّونَ فِي عِيسَى، وَيَزْعُمُونَ فِيهِ مَا يَزْعُمُونَ فِي النَّبُوَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ (15)

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَعَا النَّصَارَى إِلَى الْإِسْلَامِ قَالُوا : كُنَّا مُسْلِمِينَ قَبْلَكَ، فَقَالَ "كُذِّبْتُمْ، يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثُ : قَوْلُكُمْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَكَلَكُمْ الْخَنزِيرَ، وَسُجُودُكُمْ لِلصَّلِيبِ" فَقَالُوا: مِنْ أَبَوَيْهِ إِذَا ؟ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَنْزَلَ : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ثُمَّ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، وَكَانُوا سِتِينَ رَاكِبًا، مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ نَفَرُوا إِلَيْهِمْ يَأُولُ أُمُرِهِمْ : الْعَاقِبُ : وَهُوَ أَمِيرُهُمْ وَصَاحِبُ مَشُورَتِهِمْ، وَالسَّيِّدُ : وَهُوَ صَاحِبُ رَحْلَتِهِمْ، وَ أَبُو الْحَارِثُ : أَسْقَفُهُمْ وَحَبْرُهُمْ وَصَاحِبُ مَدَارِسِهِمْ، فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْحَبْرَةِ، وَأَرْدِيَةٌ مَكْفُوفَةٌ بِالْحَرِيرِ، وَفِي أَيْدِيهِمْ خَوَاتِمُ الذَّهَبِ، فَقَامُوا يُصَلُّونَ فِي الْمَسْجِدِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، فَقَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "دَعَوْهُمْ" ثُمَّ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ عِثْمَانُ : مِنْ أَجْلِ زَيْكُمُ هَذَا، ثُمَّ غَدَوْا عَلَيْهِ بِزِي الرِّهْبَانِ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ وَدَعَاهُمُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَبَوْا وَقَالُوا : كُنَّا مُسْلِمِينَ قَبْلَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثُ : عِبَادَتُكُمْ الصَّلِيبَ، وَأَكَلُكُمْ لَحْمَ الْخَنزِيرِ، وَزَعْمُكُمْ أَنَّ اللَّهَ وَلَدٌ" (16)

وَكَثُرَ جِدَالُهُمْ وَحُجَّاجُهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَيَقْرَعُ بَاطِلَهُمْ بِالْحُجَّةِ .

ثُمَّ دَعَاهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : اضْطَرُّمُ الْوَادِي عَلَيْكُمْ نَارًا، فَقَالُوا: أَمَا تَعْرِضُ عَلَيْنَا سِوَى هَذَا ؟ فَقَالَ : " الْإِسْلَامُ أَوْ الْجِزْيَةُ أَوْ الْقَتْلُ " فَقَبِلُوا الْجِزْيَةَ وَأَقْرَأُوا بِهَا (17)

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ حَذِيفَةَ، قَالَ : جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ — صَاحِبَا نَجْرَانَ —

إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيّاً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبتنا من بعدنا. قالاً: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلاّ أميناً، فقال: "لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حق أمين" فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "قُمْ يَا أَبَا عبيدة بن الجراح"، فلما قام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا أمين هذه الأمة." (18)

وفي ترك النصارى للمباهلة والملاعنة دليل ظاهر وشاهد عظيم على صحة نبوته عليه الصلاة والسلام، إذ لو كان النصارى واثقين من معتقدهم لما استكفوا عن الملاعة، ولسارعوا إلى ما طُلب منهم، ولذا كان التعقب القرآني على هذه القصة ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿الوقفه الخامسة : دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء .

مرّ فيما سبق إقامة الحجة على النصارى في شأن دعوتهم " الوهية عيسى عليه السلام" فاقتضى الأمر دعوتهم إلى الدين الحق الذي يقوم على وحدانية الله، وعدم إشراك غيره من خلقه في عبادته سبحانه، فكان نداء القرآن لأهل الكتاب على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كلمة سواء كما قال الله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

هذا رجوع إلى المجادلة بعد انقطاعها إلى الدعاء إلى المباهلة، والذي بعث على هذا الرجوع إلى المجادلة : الحرص على إيمانهم وإشارة إلى شيء من زيغ أهل الكتابين - من اليهود والنصارى - عن حقيقة التسليم لله،

وإسلام الوجه له فيما تقدم في قوله تعالى ﴿فَقُلْ أَطَعْتُ اللَّهَ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

وقد جيء بهذه المجادلة بحجج لا يجدون عنها مخرجاً ولا فكاكاً، وهي دعوتهم إلى تخصيص العبادة لله وحده دون سواه، ونبذ عقيدة إشراك غيره في الإلهية.

فجملته: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ بمنزلة التأكيد لجملته: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا﴾ لأن مدلول الجملة الأول احتجاج بضعف ثقتهم بأحقية اعتقادهم، و مدلول هذه احتجاج عليهم بصحة عقيدة الإسلام و من أجل ذلك لم تعطف هذه الجملة. قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ مستعملة في طلب الاجتماع على كلمة سواء و هو تمثيل، جعلت الكلمة المجتمع عليها بشبه المكان المراد الاجتماع عنده، و اطلقت الكلمة هنا على الكلام الوجيز كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: 101].

وكلمة: ﴿سواء﴾ اسم مصدر الاستواء، و هو يفيد العدل، و قيل يفيد القسط الذي لا شطط فيه و لا علو، قال ابن عطية الأندلسي: (يستوي فيه جميع الناس، فإن اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً لا يكون على استواء حلاً) (19) وما جاء في هذه الآية الكريمة دعوة صريحة رشيدة إلى الفريقين: اليهود والنصارى لإخلاص العبادة لله وحده. وتنقية العقيدة من شوائب الشرك والضلال. فلا ينبغي لأحد من البشر أن ينقاد بالطاعة والعبادة لأحد من الخلق، أياً كان هذا المعبود من دون الله. كما فعل اليهود حيث عبدوا عزيزاً من دون الله، والنصارى حيث عبدوا عيسى ابن مريم، و أطاعوا الأحرار والرهبان، وهم رؤساء الدين عندهم، أطاعوهم فيما أحلوا وحرّموا، و قد روي أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

...﴿ كان عند النبي صلى الله عليه وسلم عدي بن حاتم، وكان نصرانياً ثم أسلم فقال له : يا رسول الله ما كنا نعبدكم. فقال له صلى الله عليه وسلم : " أما كانوا يحرمون لكم و يحللون، فتطيعونهم و تأخذون بقولهم ؟ " فقال: بلى فقال : " فذلك عبادتهم "(20)

فالدعوة هنا إذا اشتملت على نقطتين هما :

1. ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً﴾ وقد اشتملت على وحدانية الألوهية.

2. ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذه تبين وحدانية الربوبية وهي دعوة جميع رسل الله كما تقدم، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

يقول البقاعي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (و لما كان الرب قد يطلق على المعلم والمربي بنوع تربية ... على أن المحذور إنما هو اعتقاد الاستبداد، و ولا جزاء على ما يختص به الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذي اختص بالكمال، و لما زاحت الشكوك وانتفت العلل أمر سبحانه بمصارحتهم بالخلاف في سياق ظاهره المشاركة و باطنه الإنذار الشديد المعاركة، فقال مسيئاً عن ذلك مشيراً بالتعبير بآداة الشك إلى أن الإعراض عن هذا العدل لا يكاد يكون ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ﴿أَيُّ عَنِ الْإِسْلَامِ لَهُ فِي التَّوْحِيدِ فَقُولُوا : أَنْتُمْ تَبِعُوا لِأَبْيَكُم عَلَيْهِ السَّلَام

﴿قَالَ اسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة : 131]. وامثالاً لوصيته تعالى إذ قال: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : 132] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ منصفون بالإسلام منقادون لأمره... (21)
فهذه دعوة الإسلام لأهل الكتاب محاجة بالتى هي أحسن قائمة على عرض الأدلة والبراهين .

الوقفه السادسة : محاجة أهل الكتاب في عقيدة ابراهيم عليه السلام .
قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)﴾

لقد علم أهل الكتاب ما جبل عليه العرب من محبتهم لأبيهم، إبراهيم عليه السلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أتى بدينه كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران : 95] في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل : 123]

وأنه صلى الله عليه وسلم دعوة ابراهيم كما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 129] فاستجاب الله لهذه الدعوة المباركة كما جاء ذلك في سورة الجمعة. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الآية: 2]

أقول لما علموا ذلك، اجتمع منهم - أي اليهود و النصارى - بحضرة رسول الله صلى عليه وسلم، بأن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم، فاليهود قالوا إنه كان يهودياً، والنصارى قالوا إنه كان نصرانياً وكذبوا؛ لأن دين كل منهم إنما قرر بكتابهم، وكتابهم إنما نزل على نبيهم، و نبيهم إنما كان بعد إبراهيم عليه السلام بذهور متطاولة، واليهود ينتسبون إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام، والنصارى ينسبون إلى الناصرة مخرج عيسى عليه الصلاة والسلام في جبل الجليل، ولا يعقل أن يكون المتقدم على دين ما حدث إلى بعده، و على نسبة متأخرة عنه، وكان دينه عليه السلام إنما هو الإسلام و هو الحنفية السمحة فقال سبحانه مبكراً لهم : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ كالمعلل لتبكيهم لأن الزلة من العالم أشنع : ﴿لَمْ تُحَاجُّوْا فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ فيدعيه كل من فريقكم " و" الحال أنه ﴿مَّا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ﴾ المقرر كل ما لاصل دين متجدد منكم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ وأعظم ما يتمسك به كل فرقة منهما السبب والأحد، ولم يكن ما يدعونه فيهما في شريعة إبراهيم عليه السلام.

فدعوة اليهود بأن إبراهيم كان يهودياً، و دعوة النصارى بأنه عليه السلام كان نصرانياً دعوة كاذبة ينكرها العقل و الشرع، قال ابن عباس رضي الله عنهما : اجتمع ائبار اليهود - أي رؤساء الدين - ونصارى نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنازعوا واختصموا في شأن إبراهيم، فقالت اليهود: ما كان إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله الآية الكريمة تكذيباً لهم . ﴿مَّا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ و في قوله : ﴿ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فيه تعريض بهم.

ثم أخبر تعالى عن هو أحق بالانتساب إلى إبراهيم. و هو ما كان على طلة

شريعته، وهم محمد صلى الله عليه و سلم وأمته، فهم الذين يحق لهم شرف الانتساب إلى أبي الانبياء إبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

تبين الآية الكريمة أن أقرب الناس وأحقهم بإبراهيم الذين اتبعوه وصدقوا بما جاء به من أمته وغيرهم، وهذا النبي محمد صلى الله عليه و سلم هو أولى الناس به والذين آمنوا من أمته وغيرهم وإن كانوا في أدنى درجات الإيمان "و الله" سبحانه وتعالى بما له من صفات الكمال وليهم.

إن الآية الكريمة قد دلت على وجوب المحاجة في الدين، وإقامة الحجة على أهل الباطل وكما احتج الله تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في أمر المسيح وأبطل حجتهم، فقد بين هنا بأن إبراهيم كان على الحنفية الإسلامية، ولم يكن مشركاً ولا يهودياً ولا نصرانياً، كما بين أن أحق الناس بإبراهيم ونصرته هم الذين سلكوا طريقه ومنهجه، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين وهذا النبي محمد صلى الله عليه و سلم والذين آمنوا معه فإنهم أهل التوحيد، والله ولي المؤمنين و ناصرهم. أخرج الترمذي عن ابن مسعود إن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن لكل نبي ولاية من النبيين، و إن وليي أبي و خليل ربي، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ فبطلت بهذا دعوة اليهود و دعوة النصارى في عقيدة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : 135] .

الوقفه السابعة : ادعاءات أهل الكتاب وكذبهم

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالٌ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

(93) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94)
قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۖ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95) ﴿آل عمران﴾.

تقدم أن هذه السورة تناولت إقامة الدلائل على إثبات وحدانية الله تعالى،
وصدق رسالة سيدنا محمد ﷺ، ومحاجة أهل الكتاب، وإبطال مزاعمهم
الكاذبة و بدعهم وتقاليدهم، والرد على شبهاتهم، ومن هذه الأكاذيب التي
أوردها القرآن عليهم :

نزلت هذه الآية الكريمة حين قال النبي ﷺ: " إنه على ملة إبراهيم " فقالت
اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل والبانها ؟ فقال النبي ﷺ : "كان ذلك
حلالاً لإبراهيم فنحن نحله " . فقالت اليهود : كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه،
فإنه كان على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا ، فأنزل الله عز وجل : تكذيباً
لهم : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (22)

فكل الطعام بأنواعه الطيبة المباحة كان حلالاً لبني إسرائيل ولإبراهيم من
قبله، إلا ما حرّم إسرائيل أو شعب إسرائيل على نفسه، وهو لحوم الإبل
والبانها، وذلك قبل أن تنزل التوراة على موسى، والذي حرّمه الله تعالى
على شعب إسرائيل في التوراة هو بعض الطيبات عقوبة لهم وتأديباً، كما
أخبر الله سبحانه بقوله : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (159) فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ
أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (160) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ
وَآكَلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (161)﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۖ

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ [الأنعام : 146] إن الذي عليه جمهور العلماء من المفسرين : أن المراد من "إسرائيل" يعقوب عليه السلام. روى الترمذي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال: " كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها" قالوا: صدقت (23) يقول الدكتور وهبة الزحيلي: (كل أنواع الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل نزول التوراة و إلا ما حرمة الله على شعب إسرائيل من مطعومات تأديباً و زجراً لهم بسبب جرائم و مخالفات ارتكبوها، و النبي ﷺ وأمتة لم يرتكبوا هذه السيئات و المخالفات، فلا تحرم عليهم الطيبات، و إبراهيم لم يكن محرماً عليه شيء من هذا لأن التحريم حصل بعد نزول التوراة، وكان كل الطعام حلالاً له) (24) ثم أمر الله نبيه محمداً ﷺ بالإحتكام إلى التوراة كتاب اليهود لتكذيب دعواهم، و قال لهم: فأتوا بالتوراة كتابكم فأتلوها إن كنتم صادقين في دعواكم. لا تخافون تكذيبها لكم. و لو جنتم بها لوجدتم أن تحريم شيء على بني إسرائيل ما كان إلا عقوبة تأديبية زاجرة، و قد ثبت أنهم لم يتجاسروا على الإتيان بالتوراة فبهتوا، و في ذلك دليل واضح على صحة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و أنه - بوحى من الله - يعلم ما في التوراة.

وبهذا ظهر الحق وزهق الباطل واندحر، وإذ استبان الحق ظهرت الحجة عليكم، فعليكم اتباع ملة إبراهيم التي أدعوكم إليها والتي تبيح ما حرمت من أكل لحوم الإبل وألبانها، و هي الملة الحنفية السمحاء. الوسط الذي لا إفراط و لا تفریط ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

الوقف الثامنة : سبب كفر أهل الكتاب و صدھم عن سبيل الله

في حوار القرآن الكريم مع أهل الكتاب يسألهم عن جحودهم لآيات الله، و عن صدھم عن طريق الحق وسبل الهداية والرشاد . وبين لهم إن الله مطلع على أعمالهم مآظھر منها وما بطن ولنقف مع هاتين الآيتين من سورة آل عمران: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءٌ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (99) .

أخرج ابن جرير الطبري عن زيد بن أسلم : أن شاس بن قيس اليهودي مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج، في مجلس لهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى بينهم من ألفة و صلاح ذات البين، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء، فقال عدو الله : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار - يقصد لا نستطيع أن نعيش بينهم بسلام ماداموا أخوة متحابين في الله ؟ ثم ذهب فأمر شاباً من اليهود أن يأتي، فيجلس بينهم و أن يذكرهم " يوم بعث" و هو يوم من أيام الجاهلية التي وقعت فيها حرب طاحنة بين الأوس و الخزرج حتى يثير فيهم الضغينة والبغضاء فيتنازعا فيفشلوا فتذهب قوتهم، و يضعفوا أمام أعدائهم خاصة اليهود أمثال شاس بن قيس، و هو منهجهم إلى يومنا هذا مع المسلمين، وما قضية فلسطين ببعيد.

فذهب ذلك الشاب اليهودي فجلس بينهم و أخذ يذكرهم بحرب بعث، وينشدهم ما قال الأوس من أنصار في هجاء الخزرج، وما قاله الخزرج في هجاء الأوس، حتى أشعل بينهم نار الفتنة، فتنازع القوم عند ذلك و تفاخروا وتباغضوا و تداعوا إلى السلاح، فقالوا : السلاح السلاح : حتى كاد يقع بينهم في ذلك اليوم قتال، و بلغ ذلك النبي ﷺ فأسرع نحوهم بمن معه من

المهاجرين والأنصار، فوجدهم مصطفين للقتال و النزال فقال لهم عليه الصلاة والسلام : "يامعشر الأنصار أبدعوى الجاهلية و أنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، و قطع به عنكم أمر الجاهلية.و ألف بين قلوبكم؟ " و جعل ﷺ يتلطفهم ويهدئهم حتى عرف القوم أنها كانت نزغة من الشيطان، و كيداً من عدوهم، فألقوا السلاح و بكوا و عانق بعضهم بعضاً حتى انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فانزل الله عز شأنه هذه الآيات الكريمة لتكون نبراساً ودرساً للمؤمنين(25).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ عَلَيَّ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101)﴾

وأختتم هذه الوقفات مع الحوار القرآني لأهل الكتاب في ضوء آيات سورة آل عمران بما قاله الأستاذ الفقيه الدكتور وهبة الزحيلي: (إن أصول الأديان واحدة وغايتها واحدة و طريقها بالدعوة إلى التوحيد الإلهامي وسمو الأخلاق والفضائل وعبادة الله واحدة أيضاً. فما على أتباع الأديان إلا أن ينضم بعضهم إلى بعض دون التمسك بما لديه، و بما أن الإسلام خاتم الرسالات السماوية فعلى المتقدمين من أتباع الملل الأخرى الانضمام تحت لوائه، ليكون (ضد) الإيمان في خندق و احدة و صف واحد أمام معسكر الشرك و الوثنية، و أما المؤمنون فهم يؤمنون بكل الرسل دون تفرقة بين أحد منهم و بما أنزل عليهم من كتب وصحف ووصايا)(26).

وهذا ما ركز عليه القرآن بدعوة أهل الكتاب بالكف عن عنادهم و حسدهم، و قبولهم سراعاً دعوة القرآن .

وهاتان الآيتان لون من ألوان التعنيف و التوبيخ من الله تعالى بلطف و لين

لأهل الكتاب على عنادهم للحق و كفرهم بآيات الله، و صدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم و مكرهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول محمد ﷺ، حق من الله، و بما عندهم من بشائر الأنبياء المتقدمين بالنبى محمد ﷺ .

قال تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (84) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿85﴾ .

هذا والحمد لله رب العالمين و صلى الله و سلم على نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين و من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الخاتمة:

انتهى بحمد الله هذا البحث الذي تناولت فيه حوار القرآن لأهل الكتاب في ضوء آيات سورة آل عمران .

ومما جاء فيه : ذكر أهم أغراض سورة آل عمران، والمناسبة بينها وبين سورة البقرة، وهما سورتان مدينتان إجماعاً .

أقول : تناولت فيه بيان إن الدين عند الله الإسلام، ومحااجة أهل الكتاب في شأن ميلاد عيسى عليه السلام ورسالته .

و وقفنا مع أمر الله لرسوله بمباهلة أهل الكتاب، و دعوة الرسول ﷺ أهل الكتاب للمباهلة، وامتناعهم عنها بعد ما ظهر الحق و زهق الباطل .

وأبطلنا بالحجج القرآنية الواضحة محااجة أهل الكتاب في شأن عقيدة إبراهيم عليه السلام، وتصحيح القرآن لما وقع في كتبهم من تحريف .

وأخيراً بيناً سبب كفر أهل الكتاب وصددهم عن سبيل الله حسداً من عند أنفسهم .

والحمد لله رب العالمين

هذا وبالله التوفيق،،،

المصادر والمراجع

1. أسباب النزول، الواحدي النيسابوري، ط1، مصطفى البابي الحلبي .
2. البحر المحيط، أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2001م
3. التحرير والتوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، 1997 .
4. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، مؤسسة علوم القرآن، عمان
5. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي، ط1 دار الفكر، دمشق، 1991م .
6. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب - القاهرة،
7. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألويسي، دار الفكر، بيروت، 1994م
8. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة .
9. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987م صحيح مسلم، مسلم بن حجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار إحياء التراث العربي - بيروت .
10. قبس من نور القرآن الكريم، محمد الصابوني، ط، دار الفكر، دمشق
11. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي دار إحياء التراث العربي - بيروت.
12. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م
13. و أسباب النزول، الواحدي النيسابوري، مصطفى البابي الحلبي .
14. والسيرة النبوية، علي محمد الصلابي، ط3، مكتبة الصحابة، الشارقة، 2003 م
15. والدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي .

الهوامش

- 1 . صحيح مسلم، مسلم بن حجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، : كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم 1910، ص42، ط1، دار إحياء التراث العربي بيروت .
- المصدر السابق، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم 1912، ص42
- 3 المصدر السابق، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلوات الليل وقيامه، حديث رقم 1825، ص26
- 4 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، مج 10، دار لفكر، بيروت، 1994م
- 5 التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، م3، ص144، ط، دار سحنون، تونس، 1997م
- 6 المرجع السابق، ج3، ص188.
- 7 قيس من نور القرآن الكريم، محمد علي الصابوني، ص112، ط1، دار الفكر، دمشق، 1997م
- 8 التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج3، ص193
- 9 صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، كتاب التيمم، حديث رقم 328، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987م
- 10 المصدر السابق، كتاب الإيمان، باب إن الدين يسر، حديث رقم 39 .
- 11 التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج3، ص194 - 196
- 12 قيس من نور القرآن الكريم، مرجع سابق، ص131.
- 13 البحر المحيط، أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، ج2، ص477، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2001م
- 14 التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي، ج3، ص247، ط1 دار الفكر، دمشق، 1991م.
- 15 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، مؤسسة علوم القرآن، عمان.

- 16 : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبه، ج2، ص547، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، ، و السيرة النبوية، علي محمد الصلابي، ج2، ص1321، ط3، مكتبة الصحابة ، الشارقة، 2003 م.
- 17 الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب - القاهرة، وأسباب النزول، الواحدي النيسابوري، ص 58، ط1، مصطفى البابي الحلبي
- 18 صحيح البخاري، مصدر سابق ،كتاب المغازي،باب قصة أهل نجران.
- 19 انظر التنوير و التحرير مصدر سابق ص 269 ج 3.
- 20 اخرجه الترمذي في سننه، و انظر قيس من نور القرآن مرجع سابق ص 135.
- 21 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي، ج2 ص109، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م
- 22 1- أسباب النزول، مصدر سابق، ص65 .
- 23 الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج4 ص134، وانظر : تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج1 ص 335 دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- 24 . التفسير المنير ، مرجع سابق، ج4 ص 8 مرجع سابق
- 25 تفسير ابن كثير ج1 ص 306 .
- 26 التفسير المنير ، مرجع سابق، ج4 ص 24